المورد

مجلة تراثية تصدر سنوية محكمة
المجلد الرابع والعشرون، العدد الاول ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الكتب

تصدرها دار الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

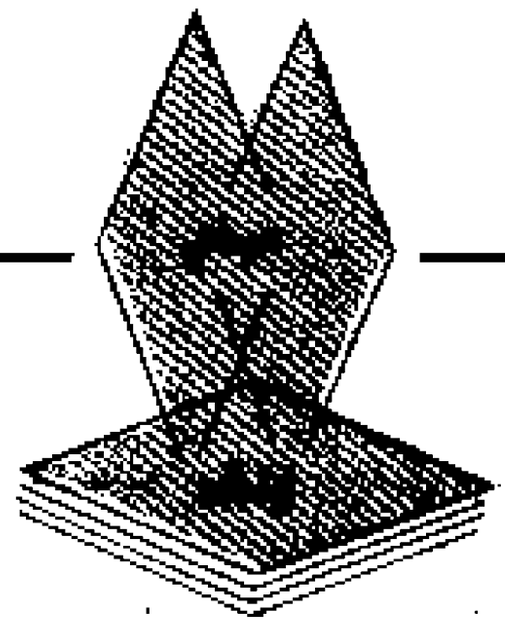

(حياة الشعر في الكوفة)

الى نهاية القرن الثاني الهجري

دكتور : يوسف خليف

عرض : محمود أحمد قرني

كتاب حياة الشعر في الكوفة لاتكمن أهميته في فوز مؤلفه بجائزة الملك فيصل العالمية للاداب عن عام ١٩٨٨ فحسب ، لكن أهميته الحقيقية تكمن فيما للكوفة من أهمية في الحياة السياسية والاستراتيجية كمعسكر للجيوش الاسلامية في زحفها نحو الشرق والشمال الشرقي ، ولما لها من تاريخ حضاري قد جعلها مؤهلة لأن تكون عاصمة من العواصم الأولى التي وضعت للحضارة الاسلامية قواعدها الاولى ، والكوفة من العواصم التي كان الاهتمام بها قليلاً لوعورة الطريق اليها مما جعل الصورة الوارثة عنها اقل وضوحاً واكثر نقصا من البصرة مثلاً وفي ضوء ذلك جاءت أهمية البحث لاستجلاء بعض هذا الغموض وإماطة اللثام عن هذه الصورة المعتمة ، وقد اقتصرت الدراسة على البحث في هذا التاريخ حتى القرن الثاني الهجري وذلك لان هذه الفترة تمثل النشأة والتطور والازدهار حتى ظهور بغداد في منتصف القرن الثاني وهو بداية انحدار الكوفة الذي وصل مداه في اوائل القرن الرابع والكتاب يقع في ثمان مائة صفحة من القطع المتوسط ويحتوي على مقدمة وبابين رئيسيين ، الباب الاول الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية ، والباب الثاني ، الشعر والحياة السياسية والاجتماعية والعقلية .

★ ★ ★ ★

في البداية نستطيع ان نقول ـ على حد قول الكاتب ـ ان تاسيس الكوفة كان احدى الضرورات الحربية التي اقتضتها طبيعة الفتح الاسلامي لبلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب واندفاع الجيش العربي تحت قيادة سعد بن أبي الوقاص .

فقد اصدر عمر أوامره الى سعد بان يتخذ للمسلمين دار هجرة ومرواداً» وكانت المهمة التي خرج من اجلها العرب من صحرائهم هي مهمة حربية في المقام الاول فلا بد ان لايفصل ـ حسب المنطق العسكري ـ بين القيادة في المدينة وبين الجيوش فاصل طبيعي حتى يضمن الجيش السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بينهم وبين القيادة فكتب عمر الى سعد يقول «ان العرب بمنزلة الابل لايصلحها الا مايصلح الابل فارتد لهم موضعاً عدداً ولا تجعل بيني وبينهم بحراً» وكان اختيار الكوفة كعاصمة حربية راجع الى عاملين اساسيين اولهما عامل حربي هو امتداد خطوط مواصلات الجيش الاسلامي بعد توغله في بلاد فارس وما ترتب على ذلك وهو حاجته الى نقطة ارتكاز له يتخذها معسكراً ثابتاً وقاعدة حربية .

والعامل الثاني هو العامل الجغرافي فهي العاصمة التي يماثل مناخها البيئي مناخات الصحراء العربية وذلك اعان الجيش على المضي في الرسالة الكبرى التي غادر صحراءه من اجلها وهي الجهاد في سبيل الله .

والكوفة منذ انشاءها وهي لاتكف عن المشاركة في حركة الفتح الاسلامي وكان اول قتال اشتركوا فيه بعد تاسيسها بقليل في سنة سبعة عشرة للهجرة عند فتح «رامهرمز والسوس وتستر ونهاوند» وظلت الكوفة تقوم بهذا الدور الخطير في حركة الفتح والاسلامي منذ حروب الدولة الاموية وقتال الخوارج الازارقة بالاهواز مع المهلب في السنة الثانية والسبعين وحتى دخول الكوفة عصر الفتن والثورات الكبرى بعد قتل «ذي الذوبين» وتشيع اهلها وكونها موطناً اساسياً من مواطن العلويين بل حاضرة لخلافة علي بن ابي طالب ثم لخلافة ابنه الحسين القصيرة من بعده .

وفي ظل حركة الفتوحات السريعة هذه جاء الشعر مسايراً لطبيعة هذه الحركة التي تدفقت ابان الحكم الاسلامي للمنطقة فجرت على السنة الشعراء قصائدهم التي تصور البعث الجديد في تاريخ الجزيرة العربية ويسجلون هذه الحركة الضخمة التي اهتزت لها ارجاء العالم القديم اهتزازاً عنيفاً .

ـ الشعر في عصر الفتوحات ـ

لم يكن الشعر في عصر الفتوحات من الكثرة بحيث يتناسب مع جلال المد المريل الذي بلغته هذه الفتوح من حيث الكم والكيف

ويبدو ان السبب في ذلك يرجع الى طبيعة حركة هذه الفتوح وما كانت تقتضيه من المشاركين فيها من تفرغ يكاد يكون كاملاً .

وكانت النتيجة الفنية لهذا ان جاء شعر الفتوح الاولى على شكل مقطوعات قصيرة ماعدا بعض القصائد القليلة التي كانت من غير شك ثمرة لفترات الراحة التي كان يمر بها شاعر من اولئك الفحول الذين عرفهم الشعر العربي وقد اعتمد الشعراء على لحن الرجز وكان اللحن الغالب على الشعر انذاك لانه كان الفن الشعبي القريب المنال فيكاد يكون عصر الفتوح عصراً عقيماً اللهم الا من هذه العبقرية الناضجة المتمثلة في «أعشى همدان» وهو كما قال عنه صاحب الاغاني «شاعر فصيح كوفي من شعراء الدولة الاموية ويصفه الاصمعي بانه من الفحول وانه كثير الشعر .

وقد تطور الرجز العربي في هذه الفترة شيئاً فشيئاً بجانب القصيد وأخذ شكلاً اسلامياً رغم الضعف الشديد الذي خيم على صورة الشعر في تلك الفترة الا ان شخصية الكوفة الفنية اخذت في الظهور والوضوح بعد ان كانت مختلطة المعالم غير متميزة السمات

ـ الشعر في عصر الفتن ـ

الحديث عن الكوفة وعن فتنٍ وعن خصومهما ، وخصوم المذاهب السياسية وادابهم في السياسة الاسلامية اخذ يتقدم في قوة وثبات ليحتل مكاناً ملحوظاً في شعر الكوفة بعد ان كان الشعر في الفترة السابقة من تاريخها مشترك المعالم مع الأمصار الاسلامية الاخرى اما الشعر في عصر الفتن فاصبح له موضوعات خاصة بمدينته واصبح يعبر عن جوانب من حياتها الخاصة التي لايشاركها فيها غيرها من الامصار .

فبعد خلافة معاوية وقتل علي اخلاق الكوفيون لانفسهم واتيحت الفرصة لبعض العبقريات الفذية لان تحتل مكانتها بين الخالدين من شعراء الادب العربي وخاصة بعد ان اصبح للكوفة مقوماتها الحضارية والاجتماعية واشتعال اول ثورة في الكوفة ضد الحكم الاموي على (حُجْر بن عَدي» وكانت عبارة عن احتجاج ضد اوامر معاوية .

وكان لاتساع واضطراب حركة المجتمع ظهور الوان متعددة من النظم فكان الرجز الجديد الذي قدمه قيس بن قهدان الكندي وهو يحث على مساندة (حُجْر» .

وبدأ القصيد يستعيد مجده القديم واخذت المرأة الشاعرة تلعب دورها على مسرح الكوفة الذي ففي اثناء هذه الثورة نجد شاعرة كوفية تودع حُجْراً قائلةً :

«ترفع أيهـا القمر المنـير ترفع هل ترى حُجْراً يسيرْ
يسير الى معاوية بن حربٍ ليقتله كما زعم الخبيـثْ»

وفي هذه الثورة بالتحديد اتسعت الطاقات الفنية للشعر ومصداقاً لذلك فإن الشاعر الكوفي عبد الله بن خليفة الطائي كتبَ قصيدة طويلة الى عدي بن حاتم الطائي من جَبَلَيْ صلمى اللذين التجا اليهما فراراً من أوامر زياد وكان قد فرض عليه ان يغادر الكوفة ، ويبدأها بقوله :

«تذكرت ليلى والصبيبة أعصرا وزِدْتُ الصبا بَرْحٌ على من تَذكّرا
وولى الشباب فانثنت غصونه فيالك من وجد به حين ابترا»

وقد بلغت القصيدة ستة وخمسين بيتاً ولم يكن للكوفيين عهد بالقصائد الطويلة وقد يرجع ذلك الى الفراغ الذي كان يعيشه الشاعر في منفاه .

ويتتبع الدور الفني الذي قام به شعراء الكوفة نجد ان كل الثورات التي قامت في الكوفة كان لها شعراءها فبعد عبد الله الطائي شاعر ثورة حجر بن عدي كان عبد الله بن الحر الجعفي شاعراً لثورة الحسن وعبد الله بن الاحمر الارحبي شاعراً لثورة التوابين وابن همام السلولي شاعراً لثورة المختار وأعشى همدان وابو جلدة اليشكري شاعري ثورة ابن الاشعث والكميت شاعر ثورة زيد بن علي وعبد الله بن معاوية نفسه شاعر ثورته وكان هذا العصر هو العصر الذي استعاد فيه الشعر مجده القديم واخذ اصحابه يلتفون فيه حول ماضيهم الحافل بالذكريات وكان عبد الله بن خليفة هو ابرز هؤلاء الشعراء فقد خطا بالشعر السياسي في الكوفة الخطوة الاولى التي نقلته من المجال الضيق الذي كان يدور فيه في عصر الفتوح الاول .

عصر الانقلاب والرقابة ـ

مرحلة الانقلاب العباسي كانت هي مرحلة الدعوة السرية للثورة ثم التنفيذ العملي لها وبالطبع لم يرتفع في مرحلة السرية صوت الشعر السياسي لان الكوفة كانت تعاني في ذلك الوقت حالة من اليأس جعلها تنفض يديها من السياسة ومشكلاتها حتى بدات مرحلة الثورة فبدأ بالتالي يعلو صوت الشعر السياسي ولكنه في خفوت وذلك بسبب صخب الصراع وارتقاب الناس نتيجة القتال واشتراكهم فيه وغلبة العنصر الخراساني .

أما عصر الرقابة فقد فرض العباسيون فيه رقابة صارمة على الكوفة خوفاً من تجدد الثورات من العلويين الذين لم يحقق لهم الانقلاب العباسي ما كانوا يحلمون به طوال العصر الاموي واختلفت السبل بالشعراء في هذا العصر ، فطريق ساير التيار الجديد وطريق وقف معترضاً سبيله وكان أبو دلامة يمثل الاتجاه الاول وابو عطاء السندي يمثل الاتجاه الاخر ولما كان ابو دلامة موالياً للعباسيين جاء صوته الشعري خافتاً ضعيف الصدى لانه لم يكن قائماً على عقيدة سياسية في حين كان الشعر السياسي عند ابي عطاء السندي عالياً قوياً وكان ذلك بسبب صدمته النفسية حين حاول التقرب للعباسيين فصدوه فامتلأت نفسه سخطاً عليهم وحسرات على بني امية .

ثم بدأت تخف قيود الرقابة بعد الخليفة المنصور وكانت قد

استقرت اركان الدولة الجديدة فمضى شعراء الكوفة يضربون في شعاب الحياة العامة كما يضرب سائر الشعراء يمدحون الخلفاء ويذمون بما يقومون به من اعمال واخذت بغداد تجتذب اليها العناصر الطامحة من هؤلاء الشعراء ثم اخذ الشعر السياسي يفقد اهميته اذ لم يعد الشعراء يجدون فيه فرصتهم الذهبية للظهور لان الحياة الاجتماعية التي سحرت الناس بمتعتها والوانها الضاحكة الناعمة صرفتهم عن التفكير في السياسة ومتاعبها ومشكلاتها .

الحياة الاجتماعية :

كانت العصبيات القبلية عنصراً اساسياً من عناصر هذه الحياة وخاصة في بداية الحياة في الكوفة وظلت سائرة كما بدأت حتى اذا ما كانت ايام صفين ، ومضت القبائل يحارب بعضها بعضاً وتقطع فواجر ارحامها فواجر ارحامها واشتعل في نفوسها ما كان الاسلام قد اخمده من قبل .

ولم يتتبع خمود نيران معركة صفين خمود نيران هذه العصبيات اذ زاد اشتعالها بعد قيام الدولة الاموية ولم تخب طوال عصر هذه الدولة حتى اذا ما اخذت العناصر الاجنبية تطغى على العنصر العربي في ايام العباسيين ، اخذت تضع الرماد على هذه الحياة القبلية وماكان يتأجج فيها من عصبيات .

وقد ساير الشعر خط الداره اذ خضع الشعراء لهذه العصبيات القبلية وتركوها توجه حياتهم ولهذه الوجه التي ترتاح لها قبائلهم واستطاعوا ان يستغلوها في شعرهم ليكونوا ـ كما كان اسلافهم الجاهليون ـ الالسنة الناطقة لقبائلهم المعبرة عن حياتها الاجتماعية . وقد تاثر الشعر الاموي بهذه الحياة القبلية من ثلاثة اتجاهات :

الاول : ظهر عند اولئك الشعراء الذين التفوا حول اشراف الكوفة وساداتها من رؤساء القبائل يمدحونهم ويتغنون بمآثرهم .

والثاني : ظهر عند طائفة اخرى من الشعراء الذين مضوا يتغنون بقبائلهم عامة دون ان يشدوا انفسهم الى عجلة احد من الاشراف .

وظهر الاتجاه الثالث عند مجموعة من شعراء الحياة السياسية الذين لم يستطيع كثير منهم أن ينفصلوا عن الحياة القبلية التي كانت تحياها مدينتهم بل كانت طائفة منهم تنظر الى الصراع السياسي لا من وجهة النظر السياسية ولكن من وجهة النظر القبلية حتى اصبحت العصبيات عنصراً اساسياً من عناصر شعرهم السياسي وكان ابرز شعراء هذا الاتجاه اعشى همدان والكميت .

الحياة الاقتصادية ـ

كان يوجد بالكوفة فئتان متفوتتان اقتصادياً : تتالف الاولى من الارستقراطية العربية اصحاب الثروات الضخمة والاقطاعات الكبيرة والضياع الواسعة الذين تركزت في ايديهم ثروة الكوفة ثم من اولئك الدهاقين الذين كانوا يمثلون الارستقراطية الفارسية واستطاعوا باسلامهم في الوقت المناسب ان ينقذوا بقايا نفوذهم القديم .

وتتالف الاخرى من تلك الكتلة الشعبية الضخمة من العرب الذين لم تتح لهم فرص الثراء ومن اولئك الموالي الذين كانوا في ظروف اجتماعية واقتصادية سيئة ثم من اولئك الاجانب الذين لم يعتنقوا الاسلام وانما قبلوا دفع الجزية نظير احتفاظهم بديناتهم القديمة .

حياة الزهد :

بلغت موجة الزهد في الكوفة درجة مد عالية في العصر الاموي وظلت في تدفقها على الشاطىء العباسي فترة غير قصيرة وان تكن قد بدأت موجة اخرى من اللهو والمجون والزندقة ترتفع من حولها .

أما من الناحية الفنية فكان الموقف يبدو غريباً ففي الوقت الذي ارتفعت فيه هذه الموجة صمت الشعر الكوفي عن تصويرها ولم يظهر شاعر غمر حياته فيها واخلص فنه لها ولما بدأت هذه الموجة تصطرع مع الموجة اللاهية خرج هذا الشعر عن صمته واخذ صوته يرتفع وظهر من اصحابه من اتخذ من الزهد مذهباً له في حياته وفنه .

وكان ذلك مقدمة لظهور شاعر الزهد الاكبر أبي العتاهية الذي شهدت طفولته الانقلاب العباسي فانطبعت في نفسه الصغيرة صورة قاتمة للحياة ثم اصيب في صباه بصدمتين عاطفيتين ، في غرامه الاول بسعدى الناشئة وغرامه الاخير بعتبة جارية المهدي .

وقد امتهن الشاعر في صباه مهنة صنع الجرار لذا لم تقبل عليه الحياة الا بعد ادبار الشباب مما احدث في نفسه رد فعل معاكس تماماً فبدلاً من ان يقبل على الدنيا أعرض عنها وقرر ان يزهدفيها فلبس الصوف واعتزل الناس .

وكانت فكرة الموت هي الفكرة الاساسية في شعر أبي العتاهية ولكنه لم يقف من هذه الفكرة موقفاً فلسفياً يسوده الشك والحيرة انما وقف منها موقفاً دينياً يسوده الايمان واليقين وقد اختفى العقل الفلسفي في شعره في حين تتجلى العاطفة الدينية في اقوى صورها فالحياة عند ابي العتاهية كما هي في القرآن الكريم دار الفناء والزوال ومتاع الغرور .

حياة اللهو ـ

بدأ ظهور هذا التيار منذ وقت مبكر في حياة الكوفة ثم مضى في طريقه على استحياء حتى بلغ درجة المد العالي مع تقدم القرن الثاني الى الوجود وقد شارك الشعر الكوفي في كل جوانب هذه الحياة اللاهية وعبر عن كل مظهر من مظاهرها ولم يندفع الشعراء الكوفيون مع تيار من تيارات الحياة الاجتماعية مثلما اندفعوا مع هذا التيار اللاهي غير مبالين بعرف اجتماعي اذ كان هدفهم الاول والاخير ان يعيشوا حياة لايقيدها قيد وأن يعبروا عنها تعبيراً حراً

لايلتف أمامه تقليد وان يخلصوا لحياتهم وفنهم اخلاصاً لايشوبه نفاق وكانت مقدمات هذه الموجة لدى وليد بن عقبة وابو زبيد الطائي وكان أهم شاعرغمرته هذه الموجة هو الاقيشر الاسدي فاخذ يتحدث عن الخمر في صراحة مذكرة .

ثم مضى المجتمع اللاهي حتى وصل الى ذروته على يد «عصابات المجان» في القرن الثاني وظهرت الغزليات والخمريات واعتناق المانوية ثم الاخوانيات ثم اخيراً شعر الديارات الذي صور فيه الشعراء اوقات لهوهم في الاديرة المسيحية التي كانت منتشرة في منطقة الكوفة .

ولا نستطيع في النهاية الا ان نقول انه رغم كل ذلك فان هذه المدرسة قد خصت بالشعر الكوفي سواء من ناحيته الموضوعية او من ناحيته الفنية خطوة به بعد المدى بعدت به بعداً كبيراً عن صورته القديمة .

* * * *

بعد هذا العرض السريع لدراسة طويلة عن حياة الشعر في الكوفة اثناء القرنين الاولين يجدر بنا ان نتساءل : ما الجديد في البحث بداية نستطيع ان نقول ان هذه الدراسة هي من الدراسات القليلة التي تدرس الكوفة دراسة مستقلة وايضاً يعتبر هذا العمل من الاعمال القليلة التي حاولت ان تربط بين الشعر والحياة في اطاره الزمني وهي فكرة سيطرت على العمل حتى النهاية .

كما كان عرض الحياة السياسية مفيداً للغرض الذي اخطته المؤرخون من ربط هذه الحياة بعصور الخلفاء وتقسيمها الى عصور تحددها سنوات حكمهم ـ اذ ان هذه التقسيمات تعتبر تقسيمات جزئية .

كما ان الباحث اماط اللثام عن نفسية الغمر السياسية وتطرق الى مناقشة تلك الفكرة التي شاعت عن اهل الكوفة من انهم اهل غدر ونفاق وتقلب وهوائية وانتهى الى رأي يخالف ما استقر في اذهان القدماء والمحدثين اذ انه يرى ان المسألة لم تكن اكثر من فقدان روح التضحية والفدائية في نفوسهم بسبب الظروف السياسية التي كانوا يمرون بها وهي ظروف كانت تجعلهم في اكثر الاحيان في حالة يأس من نجاح اية محاولة تغيير .

في نهاية بحثه يقول الدكتور يوسف خليف «هذه محاولة حاولنا بقدر ما أمدتنا به مصادرنا من معلومات وماهيأت لنا من وسائل فان يكن ثمة قصور فلننشد مع المتنبي شاعر الكوفة العظيم ـ

«وأتعبُ خَلْقِ الله من زاد همه
وقصر عما تشتهي النفس وَجْدُهُ»

* * * *